ملك في الزحمة

بقلم : فتحي محمد عبد الفتاح

الجو خانق والزحمة على اشدها.. المكان حافل بشتى أنواع الشباب من مختلف الاماكن ، الناس يتوافدون فرادى وجماعات يضم كل منهم ابتسامة مرسومة ويحدون اوضاعا وثورات يتقبلونها تماما بعد ان تعودوا عليها ونرى في المكان هنيهة وفي بعض اللحظات تنفجر ضحكة من بعض الجالسين تحس بانها ضحكة لها طابع خاص ورنين مقصود .. وبدأ المكان يموج بالوافدين وتسمع خرخشة الكراسي وهي تنتقل من مكان الى آخر فتزيد الضجة وترتفع وتحس للمكان بطابع فريد يعرفه كل من الفه واعتاد عليه .. وتقترب الساعة من التاسعة وترداد الوافدون كثرة وعددا ويلتصق كل منهم بالآخر حتى تنعقد المقاعد ولايجد الوافدون متسعا بكفهم فيحاول كل منهم مخلصا ان يشرك رجله في مقعده وهو مغبط مسرور بهذا .. ربما لم يكن يعرف اسمه او مهنته في الحياة ولكنهم قد تآلفوا وتجاوبت نفوسهم وتآلفت ارواحهم فكأنهم أنداد عرف كل منهم بده منذ زمن بعيد ..

وأنا جالس في المكان وسط الضجة والزحمة - ورغم اني أحس لهم الا اني احس باني فريد ومعزول عنهم رغم اني اشاركهم جلستهم وهوايتهم . ان المكان اصبح كتلة من اللحم البشري ، الاجساد متلاحمة والناس ملتصق كل منهم بالآخر ، وتقترب لحظة يمج فيها الجمع بالضجيج وتطفح قلوبهم بالسعادة والامل .. آه .. وتطوحوه وتشرئب اعناق وترقص ابتسامات على الشفاه وتتسمر نظرات املة وترتسم خيالات أفراح في الاعين وعقارب الساعة ترداد قربا من التاسعة مساء .. وتنصب العيون كلها عليه .. هنا لقد حضر شيق !! .. الكل يأخذوا معينا وتلوح الايدي وتصفق والواقد يقبل متمخطرا تملأ نفسه السعادة ويعمر كيانه الفرح ويقبل على الجمع السعيد مرسوما كأنه امير حضر للتو ليروح ملكا ..

ثم يمشي بين الجمع الحاشد .. لا .. يتهادى يوزع النظرات ويثر البسمات بالعدل والحق والقسطاس المستقيم .. نعم انه عادل فلكل شخص عنده منزله مختلفة ومكانة فريدة تبعا لمعاملاته واخلاصه وتفانيه لعمله في هذا المجتمع الذي يعيش فيه .. كل هذه الليالي التي شاركت فيها الجمع

السعيد - وهي ليال كثيرة - كان المفروض ان اتحاسب فيها مع شفيق صاحب هذا الخشب الا انني فشلت تماما في ارضائه وكان فشله في ارضائي ابعد من فشلي انا .. لم اعرف لماذا .. ربما كنت افتقر الى تلك القدرة التي يتمتع بها بقية الجمع ولذا فانني اعتبر نفسي فقط السبب في فشل تلك العلاقة بيني وبين هذا المخلوق العظيم ؟!! ....

لم اكن اعرف المكان الا بان دلني عليه صديق عزيز اكن له مزيدا من الحب والاخلاص .. دلني عليه وحكى لي عن هذا الانسان القدير الذي يبعث في روح الطيبة والجمع حولا سعيدا وسعادة خالصة ترضي الجميع فيغفي كل منهم وقته خاليا مغبوطا غاية الانبساط .. علاوة على ان هدف المكان كان امل كل وغاية ماكانت تصبو اليه نفسي وتهفو اليه روحي الشاردة.

نسيت ان اقول أن شفيق يشتغل جرسونا .. جرسون قهوة الحرية التي تحتل مكانا مرموقا في وسط العاصمة .. ولو انني وجدت في القاموس كلمة اخرى مهذبة تليق بمكانة شفيق لما ترددت لحظة واحدة في استبعادها عليه ووضعها في مقدمة اسمه ولكن لم يكن لواضعي اللغة معرفة بعلم الغيب حتى يتكهنوا بانه سيخلق في يوم من الايام نوع من الجرسونات له ذلك الطابع الفريد مثل شفيق !! والحق ان شفيق يختلف كثيرا عن بقية الجرسونات . ورغم انه يقدم الطلبات للزبائن مثل بقية زملائه الا انه مميز عليهم في كل شيء ، عن الزبائن وعن صاحب المقهى نفسه .. والدليل على تميز صاحب المقهى له انه هو الوحيد الذي حدد له ساعات محدودة يقوم فيها بعمله بعكس بقية الجرسونات الذين يبدأون عملهم في الصباح ساعة افتتاح المقهى الى ان تقفل ابوابها في المساء ، اما شفيق فله ساعات عمل محدودة تبدأ من التاسعة مساء حتى الثانية بعد منتصف الليل .. يقال ان بعض الزبائن يسمونه الجرسون الغرست ويقال ان بعضهم - وهم المخلصون من جمعه - يرفض مناداته بتلك الكلمة .. والمؤكد ان شفيق نفسه يكره هذه الكلمة ويرفض رفضا باتا ان يسميه احد بكلمة «جرسون».

يقول هذا دائما لمن يخطىء ويناديه بها : « انا مش جرسون .. بالاستاذ لولا هوايتي لمن سلطان الطرب ماكان يقبل مكان هنا ابدا .. هنا ؟!! بقى دا كلام ؟ .. ياسيدي وشرف النبي لو بدور انا على فلوس كنت قعدت في ورشة النجارة بتاعتنا .. بنجيب ذهب .. انما وكتاب الله العظيم بس الواحد هو اللي هوى الفن والطرب من صغره .. ودا طرب على اصوله .. مزاج !! باسلام عالمزاج لما الواحد يملك الشريط كده ويشغله بايده .. مزاج صحيح .. سيبك من الدنيا .. المزاج هو كل حاجة .. طب ايه رايك ان انا ساعات بادفع فلوس من جيبي عشان المزاج ده .. وكتاب الله بادفع من جيبي .. »

وسلطان الطرب هذا الذي يقول عنه شفيق هو الذي جاء بهذا الجمع الى المكان الذي تدفعني اليه قوة خفية وتجذبني اليه جذبا ، نعم لقد جئت كما جاء الكل اصلا لسماع معبودي

ومطرب قلبي ونوادي المطرب العاطفي الكبير محمد سامي . فمجرد ان دلني صديقي عن هذا المقهى الذي افرد مكانا خاصا ولائقا لتداع فيه اسطوانات معبودي واسطواناته فقط حتى عودت نفسي على انتهار كل الفرص التي تتيح لي ان اضم بتلك الساعات الجميلة الصادره التي لاتعوض .. وطبعا لم يكن هناك من يقوم بهذه المهمة من بين الجرسونات الا شفيق .. بل يقال انه هو الذي اوعز الى صاحب المقهى بهذه الفكرة الجميلة السهلة التي تخدم الفن وعشاق الفن وعلى رأسهم رواد المقهى او الجميع السعيد كما يحب هو ان يسميهم .

وعلى هذا مضى يورع اتساماته على الجميع حريصا كل الحرص على الايقلل هذا من تباته وايمانه اللذين اتقنهما تمام الاتقان محاولا جهده بطريقته الخاصة ان يقع في نفس الكل موقعا حسنا مختارا ..

ومن الغريب انه كانت تأتي لحظات يعالج فيها الامر بطريقة اخرى عكسية عكس الاتسامات تماما عندما كنت المح على وجهه علائم الضجر والسرم تجاه بعض الذين تعود هو ان يبتسم لهم فلم يكن هذا يعلل من سعادتهم بل على العكس تزيدها تسانا واتقانا وتعطي للجلسة اهمية قصوى يتجاوب فيها الجميع وتتآلف ارواحهم فلا يلبثون ان يهيموا في ذلك العالم السحري الذي خلقه لهم ذلك الانسان الفريد .. اقول الحق .. لو لم يكن لشفيق وجود بين هذه الجماعة لكان للمكان وقع وصدى آخران في نفوس الحاضرين من المؤكد انه لابد بان يكون اقل اثارة واهمية مما لو وجد شفيق فيه الجلسة أصبحت مضطربة والجميع أعصابهم مشدودة نحو شفيق والقلق باد على الوجوه ونظرات ارتشاء وحدب انتباه ورجاء تنصب عليه قد ينظر اليها احيانا وقد يجب عليها بعينيه ولكن في اغلب الاحيان ماكان يغض الطرف عنها ولكنها كانت تكسو جسمه وكيانه موجات مشعة تضيء وجهه وتلمع في عينيه ثم تنعكس على الجميع فكأنها قد سقتهم خمرا فتزيد البهجة وتزيد القلق المروح بالفرح والسعادة وتبرق العيون ملهفة نحوه ضارعة سائلة وتحيط وجهه من جميع الزوايا والاركان حتى ليخيل الى أنه اصبح شيئا ضئيلا من كثرة ماأكلت منه العيون والابصار او احاله سيضطرب وتتوه عقله ولشد ما تأخذني دهشة عارمة عندما اراه في لمحة خاطفة بعيدة من وجهته محتلقا منسكلة ما وفي لمح البصر يلتفت الى احد المقربين اليه بابتسامة او تكشيرة تذهب من حرج الموقف وتخلق جوا جديدا يحرك هو دفته ويكون المسيطر على الجو مرة اخرى فتدالوجوه والابصار في محاذاته كأنها محرورة وراءه بحبل قوي متين او تراهم وقد عجزوا عن مجاراته ـ وكثيرا مايحدث فهو حريص على مفاجأته الدائمة ـ فتتدلى الرؤوس على الاحضان حيرة وضياعا وقد يداري بعضهم حيرته في الثرثرة مع جاره ..

ومع ان هذه كانت المرة الخامسة او السادسة التي أتيح لي فيها الحضور الى المكان الا انني لم استطع في المرات السابقة مجاراة الجميع والاندماج فيه اندماجا من شأنه ان يجعلني عضوا «فاعلا» في ذلك المكان الذي تثمر فيه

عادات وتقاليد خاصة ويسيطر عليه ايتكيت مميز حتى أصبح له قدسية يحترمها الجميع .. الا انني حاولت في تلك الليلة ان اهرب نفسي واعودها بل واروضها على أن تندمج اندماجا كليا مع هذا الجمع ومع شفيق رائده بالذات حتى اصبح عضوا فعالا في ذلك المجتمع الجديد .. ولذا فقد صممت في سريرتي على ان امرضها على هذا العمل حتى ولو لم تقتنع بذلك ، حدث لي هذا الخاطر في الوقت الذي لامست فيه فتاة شفيق واعتدل امام آلة التسجيل ليعلن بداية ليلة خالدة من ليالي الدهر .. وكان حادثا بعيد استعمال ذلك الفن فقد خصص لكل ليلة أغنية من الاغنيات الخالدة تذاع في تلك الليلة وكانت الليلة ليلة الثلاثاء ليلة أغنيتي المفضلة واعتقد انها ايضا كانت مفضلة لدى الجميع ..

تأكدت من ذلك عندما سمعت من بعض الجالسين حولي وهم يتناقشون في سر عظمتها وأهميتها ... لذلك فقد عادت ابتسامات الارتياح ترتسم على الشفاه ونظرات الاستحداء تملأ الأعين وشفيق متفاعل في بعض الاحيان ومجيب بايماءة بسيطة في احيان أخرى والكل تشاب خيالاتهم مع أمل سماع تلك الأغنية المحبوبة — والهب خيالهم اكثر تلك البسمة التي أجاد شفيق صنعها على شفتيه فكادت القلوب أن تقفز من الصدور وكادت الأعين أن تخرج من محاجرها ، وتمايلت الرؤوس فسيطر على القاعة رضا وشملها سكون تام — وفي تلك اللحظة وبسرعة خاطفة وضع شفيق شريطا على آلة التسجيل وبأسرع مما يتصور المرء ترك مكانه من امام الآلة وغادره نهبا وعلى وجهه أيضا تعبير أجاده وأتقنه لكثرة ما تمود عليه كان يسبق تلك البسمة المعتادة المملوءة بايحاء الوعد في الوصلة التالية ... ولكن كان أهم منها تلك الرقصة التي كانت ملحوظة تماما في عينيه والتي أدهشتني وأدخلت في قلبي الرعب في أول ليلة حضرت فيها الى المكان وأيقنت تماما انها كانت تعبر بدنه كله بسعادة طاغية .. سعادة لا نهاية لها .. سعادة لم استطع أن أعبر لها سببا الا عندما تأكدت أنه أدار شريطا غير ذلك الذي كان يرجوه الجميع ويتهافتون عليه .

وهكذا فهو دائما يعد ثم يتدلل ويمعن في الدلال ويصطاد نقطة الضعف في زبائنه ثم يسوقهم وراءه فيصبحون طوع بنانه ... ولذا لم يضجرهم هذا كثيرا فقد تعودوا عليه ثم انه كانت كل اغانيه مطربهم ومعبودهم مفضلة لديهم .. ثم ألم يعدهم بانهم سينالون حتما كل ما تهفو اليه قلوبهم وأرواحهم في الوصلة القادمة ؟ .. اذن لم الضجر والقلق والليل طويل والأنس مقبل وهذه الليلة ستكون — ككل ليلة — ليلة انس وابتسام ؟ .. ولم يبق أن يغادر خارج المقهى بعض اللحظات ليكمل احاديه خطة تمرن عليها تماما وليترك الخائل ليحلموا وليسمعوا ويتمتعوا من الرحيق ويشربوا كئوسا مترعات من خمر صانعهم .

وتقلت الرؤوس واهتزت وانسدلت الرؤوس على الأجفان وانحنت الأجساد بعضها الى الوراء والبعض الى الأمام وسيطر على المكان سكون الليل وباهت العقول وعاشت في عالم آخر صنعوه لأنفسهم وبحركة أصبحت مألوفة تحركت الأيدي — كل الأيدي — بدون أن تشعر ، تحركت وتسللت الى الجيوب ولعبت لفائف التبغ وتقابلت مع

الشفاء لتعيش معها في قبلة طويلة ليس لها مدى ولا نهاية طالما مد الله في عمر الساحر وطالما كانت هذه الأنغام تملأ المكان وتفوح اريجها ليعطر هواء المقهى .

أما صاحبنا فقد تريث بعض الوقت خارج المقهى ليجمع كل قواه في تلك المرحلة النهائية والتي تعتبر أهم مرحلة في خطته .. ثم عاد تملأ فمه ابتسامة يعرفها كل فرد في جماعته وبحركة مألوفة والألحان متسابة كهدير المياه حاوطته كل الشفاه المتلاحمة والمتراصة امامه .. حاوطته ببسمات رضا وصفاء ود واخلاص ، وتجاوب معه كل عضو وأدوا واجبهم تماما عندما عبق هواء المقهى بعفنات الشيشة ولفائف التبغ .. وتقارعت زجاجات العاروره تحدث صوتا ودويا رنانا وسط سكون الليل ويحدثان مع نغمات الموسيقى نغمة جديدة يعرفها كل أعضاء الجمع السعيد ويعرفها شفيق نفسه فتنعكس على وجهه لمحات مضيئة يحاول جهده اخفاءها بطريقته الخاصة والتي كانت تفتلني من الغيظ والحقد .. ورغم ذلك فلم تستطع تلك اللمحات المضيئة على وجهه أن تمنعني من أن أنشئت بما استقر عليه رأيي في تلك الليلة من أن اكون عضوا فعالا في هذه الجماعة .. عضو يرضى عنه شفيق عندما يتهادى وسط الجمع يبشر بسماته لكل الاعضاء الى أن يقترب مني فأحس بخوارات صغير تؤلمني عندما يمر بي فلا أحظى بابتسامته التي يخيل الى انها تسكب النور والامل في قلوب رواد المقهى فاحس ساعتها بأن المطرب لن يكون له هذه القدرة على امتاع المستمعين ما لم تكن هناك تلك البسمة التي يهديها شفيق لجمهوره . والح على الخاطر مرات أخرى ومرات في الوقت الذي بدأ فيه شفيق يفي بوعده ويذيع الأغنية التي كان يتلهف عليها الجميع ويشتاقون لسماعها .

ووجدت عقلي يلف ويدور وقلبي يضطرب مع خيالات حالمة لذيذة من السعادة والاستمتاع بالمزاج الذي يعيش من اجله أفراد الجماعة .. ولسار يرى نيستطر رويدا رويدا عندما بدأت يدي تتحرك لا شعوريا وتندس في جيبي لتخرج سجائري الكليوبترا فأخرج منها سيجارة أناولها له ولساني يتحرك ليخرج نغما لم أشعر بمثل حلاوته من قبل وينادي بأعلى صوت : « شفيق .. مساء الخير .. »

في تلك اللحظة لم أشعر بالتغير الذي اكتسى به وجهه والذي كان ممزوجا بخليط من عجب المفاجأة مع فرحة طاغية حاول أن يخفيها ولكن لم يتمكن من ذلك .. نعم لم أشعر بهذه التغيرات التي اكتسى بها وجهه ولم اشعر به وهو ـ ولأول مرة ـ يدنو مني مرحبا الجماعة كبيرة لم أتعودها من قبل ـ حتى مع المفضلين من خدمه ـ وفمه يهدر بكلمات شكر يخالطها نوع من الاحترام أقرب الى الخنوع والنفاق .. لم أشعر بهذا او ذاك فقد كان يسيطر على شعور جديد بالراحة والطمأنينة لأني احسست في هذه الليلة ـ ولأول مرة ايضا ـ بأني قد أصبحت عضوا جديدا في الجمع السعيد .. عضو يرضى عنه شفيق تماما. وزاد الاحساس مرة أخرى وتمكن من نفسي حتى شعرت بنوع من الخيلاء يجري مجرى الدم في عروقي عندما كنت واقفا امامه في آخر السهرة وهو يحيي أمامي الجماعة لم أره يتكرم بمثلها

كنت أمد فيها يدى اليه بقطعة فضية من فئة نصف الريال وعلى شفتى تضىء ابتسامة مرسومة يعرفها كل فرد من أفراد الجمع ثم أحرك رأسى بايماءة بسيطة غير منتظر لأعرف باقى الحساب وحال لسانى يقول « خلاص .. خلاص يا شفيق سعيدة» ساعتها لم انتظر لأرى ابتسامته التى أصبحت أميزها تماما لانها ـ ورغم الحاحى وعملى المستحيل للحصول عليها ـ ما زالت تدخل فى قلبى رعبا هائلا لم استطع حتى الآن أن أتخلص منه رغم أنى أصبحت من الاعضاء الدائمين فى الجمع السعيد ، ذلك الجمع الذى يقول عنه شفيق انه أضاع فيه مستقبله من اجل عيون الفن ورواد الفن الأحباء ..

ودارت الايام دورتها العادية وأنا اقتطع كل ليلة جزءا كبيرا من مرتبى الضئيل اهديه قربانا للفن السبيل ممثلا فى شخصية شفيق ، ولم يكن فى مقدورى ان أتبين فى عمرة ذلك هل أنا راض أم متراض .. فقط عشت فى دوامة العز الذى حياه هذا المخلوق لأعوانه .

شىء واحد روعنى وجعلنى أقف مشدوها بلا حراك لا أعرف ماذا حدث وما الذى كان يحدث .. ذلك انى عندما عدت من القرية بعد ان امضيت فيها اجازتى الصيفية الفيت جوا جديدا صدمنى من اول وهلة .. الجمع السعيد

ما زال يجتمع ولكن شفيق ؟!!

وعندما خبرت انه قابع فى السجن لان صاحب المقهى اتهمه باختلاس نقود الزبائن ، بطريقة جشعة وشكل غير معقول ، ؟!! وألقى له تهمة دخوله السجن .. ساعتها فقط شعرت بأنى ارتحت وارتاحت نفسى من هذا الرعب الذى صاحبنى فى اول ليلة رأيت فيها شفيق والذى اتضح أنه ما زال كامنا فى نفسى وان خفى فى عمرات اللاشعورى فى الجمع .. لحظتها ارتحت فعلا واعملا جسدى كله بالتشفى الحاقد الى .. لا لا لا .. ليس الى شفيق .. نعم ليس الى ذلك الماهر الذى أن له أن يقع .. ولكن وجدت ان هذا التشفى يتجه كلية وفى دفعة واحدة الى ذلك الجمع ، الذى لم يعد سعيدا بعد ،

وعندما كنت أخطو خطواتى عائدا من حيث أتيت الى غير رجعة كان يخيل الى ان لكل شىء علما ... ولكل جريمة مشهيات .. وان ليس ورق الجمل على المحابين فقط .. وان ليس هناك قضية اسمها « أنا فعلت لأنى تشجعت» .. لم يخيل الى ذلك فقط بل خيل الى أن هناك سؤالا سادحا يدور فى خاطرى وان كنت ـ حتما ـ لا استطيع ان اساله علنا لأنه سؤال سادح فعلا .. هذا السؤال مؤداه « لماذا يذهب الناس الى السجون ؟!! » .